د . ميشال عاصي

دور المجلات الادبية اللبنانية في الخلق الفني والابداع

١ ـ يحتل لبنان في حقلي الصحافة والادب مكانة عالية ترقى في الزمن الى بداية اليقظة العربية في القرن الماضي ، وما تزال مستمرة حتى وقتنا الحاضر .

والحضور اللبناني في الادب والصحافة ليس ادعاء ندعيه . وانما يجد تعبيره الملموس في اسماء الرواد الكبار من مؤسسي الجرائد والمنشورات الصحفية الاولى في البلاد العربية وخارجها . ويتجسد في مجمل النشاطات الصحفية التي كان للبنانيين دور بارز في اذكائها خلال المراحل التي مرت بها نهضة العرب الحديثة منذ بدايتها حتى اليوم . كما يتجلى ، في شكل ظاهر ، باسماء الكتاب اللبنانيين في مختلف حقول الانتاج ، وبآثارهم الفنية في شتى انواع الادب والفكر والثقافة .

٢ ـ ولعل الاسباب التي تجعل من لبنان بلدا تجاريا واقتصاديا مرموقا ، هي نفسها التي تجعل منه في الوقت نفسه بلدا للتفتح الادبي والثقافي بوجه عام . فموقعه الجغرافي وطبيعته ، وميراثه الحضاري ، وتكوينه الاجتماعي التعددي ، والحرية السياسية النسبية التي يتمتع بها اللبنانيون ، كلها عوامل مساعدة على دفع اللبنانيين الى تحقيق المبادرات الخلاقة في شتى ميادين المعرفة والتعامل التجاري والاقتصادي الواسع .

على ان هذه الصورة للوضع الثقافي والاقتصادي في لبنان لا تكتمل اذا لم نلاحظ ، ضمن هذا الاطار العام ، الصراع الذي خاضته دائما ، وتخوضه في استمرار ، قوى الانتاج النامية ضد كل ما يعيق تطورها على الصعيدين المادي والايديولوجي من علاقات انتاجية متخلفة وما يلازمها من بنيات ثقافية مستنفدة ومفاهيم ذهنية متحجرة .

واذا كان من شأن التاريخ السياسي للشعب اللبناني ان يروي وقائع النضال الذي خاضته جماهير هذا الشعب ، منذ بداية النهضة الحديثة حتى اليوم ، في سبيل تحرره ومن اجل نظام سياسي ـ اقتصادي ـ اجتماعي اكثر عدالة وانسانية ، فان من مهمات تاريخ الادب ان يبرز الدور الذي لعبه الكتاب والمثقفون الطليعيون في صياغة مفاهيم التغيير ، وتهيئة الاذهان وتعبئتها بالوعي اللازم لتحقيق التطور المرجو .

٣ ـ على ان ما يهمنا هنا الان هو رسم الخطوط الكبرى للدور الذي قامت به المجلات الادبية اللبنانية في عملية التغيير ، وبصورة اخص ، في مجال الخلق الفني والابداع الثقافي . اما دور المجلات الادبية اللبنانية في التغيير التاريخي ، وفي النضال من اجل التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي ، فهو دور اساسي يواكب ما بذلته المجلات الادبية عندنا في ميدان الثقافة ، وهو موضوع يقدمه الى هذه الندوة احد اعضاء اتحاد الكتاب اللبنانيين في بحث مستقل على حدة .

فماذا اذا عن دور المجلات الادبية اللبنانية في مجال الخلق الفني والابداع الثقافي ؟

لن احاول هنا اثبات جدول زمني تاريخي للمجلات الادبية التي صدرت عندنا وتعاقبت على الظهور منذ حوالي منتصف القرن الماضي حتى يومنا الحاضر . فهذا شان مؤرخي الادب والصحافة . فضلا عن ان مثل هذه اللائحة موفورة في اكثر من كتاب ، وعني بها اكثر من باحث ومؤرخ (١) . انما يهمني بصورة عامة التأكيد على ابراز دور المجلات الادبية اللبنانية في العمل على تجاوز الواقع المتخلف لادوات التعبير ، والاشكال الفنية والجمالية ، في ميادين الابداع الاساسية ، والتنويه باهم المساهمات التي قدمتها ابرز مجلاتنا الادبية على امتداد تاريخ النهضة الصحفية والثقافية عندنا .

ولعل اول ما يجب التنويه به على العموم هو ان الاهتمامات الادبية كانت منذ البداية وظلت الى زمن غير بعيد في رأس الاهتمامات الصحفية لمعظم المنشورات الاعلامية اللبنانية سواء اكانت هذه المنشورات جرائد ام مجلات دورية . وما يزال الاهتمام الادبي ملحوظا في شكل بارز حتى بعد ان سلكت صحفنا طريق التكنولوجيا الاخبارية والاعلامية ، وما يزال للادب في صفحاتها مكانة مرموقة ، بالاضافة طبعا الى عدد لا بأس به من المجلات الادبية المتخصصة ذات النفوذ والانتشار .

وما من شك في ان وراء هذه الظاهرة ، ظاهرة الاهتمام الادبي في الصحافة اللبنانية ، عوامل عدة تعود اصلا الى الثقل الادبي في الارث الفني والثقافي للحضارة العربية ، والى رسوخ هذا الارث في وجدان اللبنانيين ، وفي مناخاتهم النفسية والجمالية .

٤ ـ واذا ما تجاوزنا هذا المدخل العام للموضوع كي نستعرض الخطوط الكبرى للدور الخاص الذي قامت به مجلاتنا الادبية في مسائل الخلق الفني والابداع ، تبين لنا ، في اجمال ، ان هذا الدور ، عبر العديد من المجلات الادبية ، وعبر عشرات السنين من الزمن ، قد تحقق في اتجاهين متوازيين ، اتجاه التفكير النظري ، واتجاه الممارسة التطبيقية في مجالات التجديد الادبي والخلق الفني

---

(١) راجع مثلا فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ، المطبعة الادبية ، بيروت ١٩١٣ .

والجمالي . وقد تبدو اهمية هذا الدور كامنة في القضايا الاساسية التي ما انفكت المجلات الادبية عندنا تطرحها حول اللغة والادب والفن والمجتمع ، وتخوض في هذا السبيل معارك حقيقية ، وتحاول في الوقت نفسه ان تبدع المنجزات النثرية والشعرية التي تجسد مفهومها الابداعي لما تدعو اليه وتنشط من اجل تحقيقه .

٥ ــ وقد يمتد بنا الكلام كثيرا ، ويتشعب الى غير طائل ، اذا نحن حاولنا ان نتتبع في تفصيل المشاركات الثمينة التي نهضت بها في مجال الخلق الفني والابداع الثقافي كل مجلة على حدة من المجلات الادبية التي بزغت في الساحة اللبنانية ، او التي تعهدت اصدارها خارج لبنان ، اقلام لبنانية ، خلال النصف الثاني من القرن الماضي والنصف الاول من هذا القرن ، سواء في العواصم العربية ، او في البلاد الاوروبية او في المهاجر الاميركية وغيرها .

لذلك يمكن الاكتفاء هنا فقط بالاشارة الى القضايا التي تركز حولها النشاط الصحفي الادبي ، خلال تلك المرحلة ، والصراع الذي خاضته طلائع كتابنا من اجل التقدم الثقافي والابداع الادبي والفني ، وكانت ابرز المجلات الادبية حلبته الواسعة وميدانه الفسيح .

لا شك في ان اول اهتمامات الخلق الفني والابداع كان الاهتمام باحياء اللغة بعد الجمود الذي اعتراها اثناء عصور الانحطاط الطويلة. فاللغة هي الاداة الاولى للتعبير الادبي والفني ، وقد كانت في امس الحاجة الى انتشالها من مهاوي الركاكة والهزال . ومن هنا نرى ان التركيز على احياء اللغة العربية واغنائها بالمصطلحات اللازمة للتعبير عن الحاجات الجديدة كان هدفا اساسيا لكتاب الدور الاول والثاني لعصر النهضة ، كما كان في الوقت نفسه غاية كبرى من غايات المجلات الادبية التي اصدرها اللبنانيون خلال تلك المرحلة . ومن يتصفح بعضا من تلك المجلات ، واقدمها ، كمجلة الجمعية السورية (١٨٥٢) ، ومجلة « الجوائب » (١٨٦٠) ، ومجلة « مجموعة العلوم » (١٨٦٨) ومجلة « الجنان » (١٨٧٠) و « الجنة » (١٨٧٠) و «ثمرات الفنون» (١٨٧٥) وغيرها ، يدرك اي اهتمام كانت جميعها توليه لمسائل اللغة على اختلافها . واذا كان طريق الابداع في اللغة اذ ذاك يعني تحريرها من الركاكة ، وتحريرها من قوالب التبعية الزخرفية والكليشهات الموروثة ، والقوالب الجامدة ، فان الطريقة التي اختطها بطرس البستاني في مجلتيه « الجنة » و « الجنان » ، واحمد فارس الشدياق في « الجوائب » كانت هي طريق الابداع لاعتمادها على السلامة والعفوية ، ولابتعادها عن الركاكة والتصنع . وبهذا تكون صحافتنا الادبية قد اضافت الى مآثرها العديدة مأثرة الاسهام في البحث اللغوي، وهو جانب اولي هام من جوانب الخلق والابداع .

٦ ــ والى جانب الاهتمام باستحداث لغة جديدة ، طيعة ونقية ، تستجيب لدواعي الحاجات الطارئة والتعبير المعاني ، سعت مجلاتنا الادبية الى تطوير الانواع الادبية الموروثة ، واغنائها بانواع جديدة غير مألوفة تماما في التاريخ الادبي العربي . وكان من جراء هذا السعي ان ولد فن المقالة على اختلاف موضوعاتها واغراضها ، ونما الفن القصصي وقامت قواعده على اساس ما بلغته تجارب الغرب من معاناة انسانية وتقنية اسلوبية خاصة في هذا الفن . وليست التجارب القصصية التي قدمتها مجلاتنا الادبية في النصف الاول من هذا القرن والنصف الثاني من القرن الماضي سواء كانت اقتباسا ، ام نقلا ، ام تأليفا ، سوى مشاركة اولية في سبيل خلق فني وابداع ادبي ناشط ومتقدم .

٧ ــ واذا كان العمل في سبيل الابداع الفني لا يتم في عزلة تامة عن العمل في سبيل الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية والتقدم الثقافي والعلمي فان الجهود التي بذلتها المجلات الادبية اللبنانية وبصورة اخص المجلات ذات النزعة التجديدية ، والاتجاه الوطني التقدمي ، كانت اذ ذاك خير رافد يصب في نهر الابداع ، وريحا مؤاتية تحمل شراع الخلق في مغامرته عبر المجهول الى موانيء جديدة مشمسة .

٨ ــ ولسنا في حاجة الى التذكير بالمجلات الادبية اللبنانية ، او التي انشاها وادارها لبنانيون بعيدا عن ارض الوطن الام ، قبل الحرب العالمية الاولى ، وبعدها اثناء فترة الانتداب ، وبدور تلك المجلات في التجديد الادبي والفني ، في لبنان او في مصر ، او في الاميركيتين ، وبالاثر البالغ الذي كان لها في حمل صوت الادباء الناشئين والمبدعين، في المقالة ، وفي الشعر ، وفي القصة ، وغيرها من حيث انها عملت على تلقيح الذائقة الادبية العربية بالوان من المضامين ، والاساليب ، والانواع ، والابعاد الجمالية والفكرية الحديثة ، التي راجت في الغرب ، ولم يألفها العرب كثيرا قبل ذلك الحين .

ويكفي ان نذكر هنا ، من بين تلك المجلات ، « الضياء » للشيخ ابراهيم اليازجي ، اضافة الى « مقتطف » يعقوب صروف و « هلال » جرجي زيدان في مصر ، ومنابر الرابطة القلمية ، والعصبة الاندلسية، في المهجر ، حيث تألقت اسماء المجددين المبدعين ، وفي طليعتهم جبران خليل جبران ، وميخائيل نعيمه وامين الريحاني ، وسواهم ممن ترتبط بذكرهم حركة الادب المهجري الخلاقة .

واذا كان المجال لا يتسع هنا لتعداد مختلف المنابر الادبية التي اسهمت في تنشيط حركة الابداع الفني ، بعد الحرب العالمية الاولى وخلال فترة الانتداب ، فلا اقل من ان نشير الى مجلة « المكشوف » التي اسسها المرحوم فؤاد حبيش واسهمت في تحريرها في اواخر الثلاثينات نخبة من ابرز شعرائنا وادبائنا وكتابنا اذ ذاك ، وكانت « المكشوف » عندئذ اكثر المجلات الادبية انفتاحا على الجديد ، في الفكر والادب ، واوفرها نشاطا واكثرها حضورا وفعالية على ما اعتقد. من غير ان ننسى بالطبع دور المجلات الادبية الاخرى ، ودور الزوايا الادبية للصحف السياسية اذ ذاك في اغناء النشاط الثقافي والابداعي، كمجلة « الفرائس » (١٩٢٤ ــ ١٩٤١) لعبدالله حشيمه ، ومجلة « المشرق » للآباء اليسوعيين ، وجريدة البرق ، للاخطل الصغير ، وغيرها من المنشورات ذات الاتجاهات التجديدية المختلفة ...

٩ ــ واذ نصل هنا الى مرحلة ما بعد الاستقلال ، منذ بداية الاربعينات حتى يومنا الراهن ، تطالعنا فترة تاريخية من اخصب الفترات ، واكثرها تداخلا وتعقيدا ، واشدها صراعا بين التناقضات على مختلف المستويات السياسية والاجتماعية والايديولوجية .

وقد كان للمجلات الادبية ، في هذه المرحلة ، دورها الهام في الصراع الثقافي بين الافكار ، وفي الصراع الفني بين الاساليب والاتجاهات المختلفة والمتنوعة .

واذا نحن استبعدنا من حقل النظر العدد الكبير من المجلات الادبية الصادرة في لبنان ابتداء من السبعينات واواخر الستينات ــ وهي مجلات يختص كل منها بسمات فكرية وفنية متمايزة فيما بينها ، ويتعذر اطلاق اي حكم على دورها في موضوع الخلق الفني قبل مرور وقت كاف على نشاطها ــ اذا نحن استبعدنا من حقل النظر هذا العدد الكبير من المجلات الادبية الجديدة لا يبقى امامنا من المجلات التي اثبتت قدرتها على البقاء ، وكان لها اثر فاعل في الحياة الثقافية عندنا ، وفي البلاد العربية ، غير عدد قليل لا يتجاوز خمسا او ست مجلات على الاكثر .

١٠ ــ وفي طليعة هذه المجلات تأتي مجلة « الطريق » التي اسسها المرحوم المهندس انطون تابت عام ١٩٤١ لتكون صوت المناضلين الوطنيين، والكتاب الثوريين في لبنان ، ولتكون اداة للصراع الفكري والايديولوجي ضد مختلف اشكال الاستغلال والقمع والعدوان ، التي تمارسها الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية على جماهير الامة العربية ،

وعلى حقوقها الوطنية ، وكيانها القومي ، وحقها بالحرية والعدالة والتقدم .

وقد لعبت « الطريق » وما تزال دورا اساسيا وبالغ الاهمية لا في المجالات السياسية والاجتماعية والايديولوجية فحسب ، بل في قضايا الخلق الفني ومفاهيم الابداع الادبي والجمالي ايضا .

فمن على صفحاتها انطلقت في الاربعينات وما بعدها مفاهيم الالتزام الادبي واثيرت قضايا الابداع الجمالي في الشعر والفن . وانطرحت قضايا الواقعية واتجاهاتها الابداعية . كما اثارت «الطريق» قضايا التراث والتجديد والمعاصرة ، وقضايا علم الجمال وغيرها من المسائل التي تدخل في مقومات عملية الخلق الفني والابداع الثقافي والادبي . ولئن استقطبت « الطريق » عددا كبيرا من كتاب لبنان ، والبلاد العربية ، المشهورين ، فانها ما تزال اليوم ، بالاضافة الى من بقي على قيد الحياة من هؤلاء ، تستقطب جيلا جديدا من الكتاب الناشئين ذوي النظرة الدقيقة والفكر التقدمي المنهجي فضلا عن جيل جديد من الشعراء والفنانين الحديثين في انواع الادب المختلفة .

١١ ـ وتأتي مجلة الاداب ، التي اسسها الدكتور سهيل ادريس عام ١٩٥٣ ، لتقف في الخط الوطني والقومي للثقافة العربية في لبنان ، ولتمثل دورا هاما في ترسيخ هذا الخط وتعميق ملامحه في الادب على انواعه ، ولتحتضن مواهب عربية ناشئة وتفتح لها دروب التقدم والمساندة ، وتحمل راية الدفاع عن حرية الادب والادباء العرب المضطهدين حيثما كانوا ، وتسهم بدورها في عملية الخلق الفني ، مواضيع ، وانواعا ، واساليب ، وتكون همزة وصل بين ماض وحاضر، وبين الادباء العرب على امتداد رقعتهم واتساع آفاقهم .

١٢ ـ ومن المجلات الادبية التي ما تزال تصدر حتى اليوم ، والتي كان لها تأثير خاص في مجال الخلق الفني في الادب ، واستقطبت عددا وافرا من الكتاب على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم ، مجلة « الاديب » التي اسسها البير اديب عام ١٩٤١ لتكون منبرا للتجديد على غير تشدد في الالتزام الثقافي والايديولوجي . وقد لعبت هذه المجلة لمدى طويل دورا مؤثرا في تطوير الاساليب والاشكال الفنية في مختلف انواع الادب . الا انها تلتزم منذ حين جانبا من الحيادية والاتباعية تدفع بها الى مناطق تجعلها في حكم اللامجدية او اللامؤثرة فكريا وجماليا .

١٣ ـ وليس يستطيع الباحث في فترة ما بعد الاستقلال وحتى نهاية الستينات الا ان يتوقف عند ثلاث مجلات ادبية ظهرت في اوقات متباعدة واحتجب بعضها عن الظهور وبعضها يعاني من صعوبات قد تضطره الى الاحتجاب نهائيا . عنيت بها مجلة « الحكمة » ومجلة شعر (١٩٥٧ ـ ١٩٦٩) ومجلة « مواقف » (١٩٦٩) .

اما مجلة « الحكمة » فقد حملت لواء المدرسة اللبنانية في الادب . وهو الاتجاه الذي يقوم من حيث الشكل على العناية بالصياغة الانيقة والتعبيرية المنمقة ، ومن حيث المضمون على تكريس المفاهيم السائدة في المناخ الثقافي اللبناني الذي يفتقر الى مزيد من الالتزام بالقضايا المصيرية العربية والعالمية . ومهما يكن فقد لعبت « الحكمة » في بعض الوجوه ، دورا مؤثرا في التنقية الاسلوبية وشفافية التعبير ورهافته .

اما مجلة « شعر » فقد لعبت دورا رياديا في الدعوة الى الشعر الحديث ، وفي تكريس الجهود والطاقات الابداعية لاطلاقه وصياغة مفاهيمه ونظرياته . ولئن فات « شعر » احيانا كثيرة القدرة على الربط بين امكانات الواقع الثقافي على المشاركة والاستيعاب ، وبين مستويات البث الشكلي والتعبيري فانه لم يفتها الموقف الجذري في عملية البناء الفني الشعري الحديث . فكانت بذلك سباقة ورائدة .

تبقى « مواقف » وهي المجلة التي انشأها ادونيس عام ١٩٦٩ ودعا فيها الى تأسيس كتابة جديدة تتخطى كل التمايزات النوعية المستقلة في الادب وتنصهر فيها مختلف العناصر الابداعية الشعرية والنثرية . كما دعا فيها الى تجاوز الماضي للتوجه نحو المستقبل كخطوة اساسية واولى لكل ابداع حقيقي اصيل . وبرغم الانتقادات الكثيرة التي تواجه هذه المجلة ، وبرغم المنع الذي تواجه به في اكثر من بلد عربي، وبغض النظر عن المردود الاجتماعي والسياسي للمجلة على حركة التحرر العربية ، فان دعوتها التجديدية ليست مرفوضة كلها وهي في جوانب عديدة منها جديرة بالتدارس وخليقة بالتمعن والتبصر .

وبعد ، فهذه اللوحة الموجزة التي حاولت رسمها لكم عن دور المجلات الادبية اللبنانية في الخلق الفني لا ادعي انها تشتمل على احكام نهائية في هذا الموضوع بقدر ما هي نظرات قد تكون صائبة وقد لا تكون ، الا انها تنطلق من قناعات مخلصة عندي ، بقدر ما يمكن ان يكون حكم الباحث الملتزم بالموضوعية والتقدم صادقا مع نفسه ومع قرائه ومع امته .

بيروت

دراســـات ادبيــة

من منشورات دار الآداب

مذكرات طه حسين	د . طه حسين	بين آدم وحواء	د . زكي مبارك
من ادبنا المعاصر	« «	التكسب بالشعر	د . جلال الخياط
تجديد رسالة الغفران	خليل الهنداوي	شخصيات من ادب المقاومة	سامي خشبة
الادب المسؤول	رئيف خوري	سيمون دو بفوار أومشروع الحياة	فرانسيس جانسون
اصوات غاضبة في الادب والنقد	رجاء النقاش	كامو والتمرد	لدولوبيه
وتبقى الكلمة	صلاح عبدالصبور	بابا همنغواي	ا . ا . هوتشنر